رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
moh.philo@yahoo.fr

فلسفة التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي
كيفية بناء الحضارة من منظور إسلامي

• محمد بن سباع
• جامعة قسنطينة2 عبد الحميد مهري moh.philo@yahoo.fr

تاريخ الارسال : 2018/01/05 تاريخ القبول: 2018/05/18 تاريخ النشر : 2018/10/04

الملخص: تُبَيِّنُ لنا فلسفة التغيير عند مالك بن نبي أن إحداثَ التغيير ضروري من أجل الارتقاء بمستوى الفرد وبالتالي بمستوى المجتمع، ذلك أن مالك بن نبي يَرَى أنه لكي نَبنِيَ مجتمعا مُتَحَضِّرًا يجب علينا أن نجعل الفرد يُؤمِنُ بضرورة المشاركة في هذا البناء حيث يَعمَلُ كل فرد على تحقيق المصلحة العامة قبل المصلحة الخاصة، لأن التفكير في هذه المصلحة الخاصة هو ما أَرهَقَ المجتمع العربي وجَعَلَهُ يَتَخَلَّفُ كثيرا عن مجتمعات أخرى صارت أكثر تَحَضُّرًا، كما يجب على المجتمع تَوطِيدُ شبكة العلاقات الاجتماعية لأنه كلما قَوِيَت هذه الشبكة كلما زادت فرصة إحداث التغيير الاجتماعي وبالتالي ميلاد المجتمع المتحضر، وهنا يرى مالك بن نبي أن دور شبكة العلاقات الاجتماعية مُرتَبِطٌ بالفكرة الدينية التي تُؤَثِّرُ ايجابيا على العلاقات الاجتماعية بين الأفراد. كما تُؤَكِّدُ فلسفة التغيير عند مالك بن نبي على أن التغيير يجب أن يقوم على ثلاثة عناصر ضرورية هي الإنسان والتراب والوقت، وأن التوجيه الصحيح لهذه العناصر هو الذي يقود المجتمع إلى بناء الحضارة.

الكلمات المفتاحية: المجتمع، التغيير، شبكة العلاقات الاجتماعية، الفكرة الدينية، الحضارة.

The philosophy of social change when Malik bin Nabi

Abstract : Malik bin Nabi's philosophy of change shows that change is necessary to raise the level of the individual and thus the level of society. Malik bin Nabi believes that in order to build a civilized society we must make the individual believe in the need to participate in this construction Public opinion before the private interest, because thinking about this particular interest is what has burdened the Arab society and make it lag far behind other societies that have become more civilized, and society must strengthen the network of social relations because the stronger this network the greater the chance of creating Social change and thus the birth of a civilized society Here, Malik bin Nabi believes that the role of the network of social relations is linked to the religious idea that positively affects the social relations between individuals. The philosophy of change in Malik bin Nabi affirms that change must be based on three essential elements: human, soil and time, and that the correct direction of these elements leads society to build civilization.
Keywords: Society, Change, Network of Social Relations, Religious Idea, Civilization.

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
moh.philo@yahoo.fr

توطئة

يُعتَبَرُ مالك بن نبي[1] من بين المفكرين العرب المسلمين المعاصرين الذين اهتموا بدراسة مشكلات المجتمع العربي الإسلامي، فقد حاول أولا أن يُشَخِّصَ هذه المشكلات وثانيا –وهذا هو الأهم- أن يُقَدِّمَ حلولا لها وفق تَصَوُّرِهِ كفيلسوف حضارة وكعالم اجتماع وتربية، فقد بَيَّنَ لنا مالك بن نبي من خلال كل آرائه التي ضمنها مؤلفاته سواء المتقدمة منها أو المتأخرة أن المجتمع العربي الإسلامي المعاصر يعيش مَأزَقًا حضاريا حقيقيا وَجَبَ عليه تجاوزه والتَّوَجُّه نحو بناء الحضارة، حيث أَكَّدَ من خلال مشروعه الفكري أن بلوغ الحضارة لن يكون إلا من خلال إحداث التغيير في المجتمع المسلم حتى يَبلُغَ مرحلة التَّحَضُّر وهي الموضوعة الذي تُعَالِجُها هذه الدراسة، ومنه مُبَرِّر تسميتنا لها بـ"التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي، كيفية بناء الحضارة من منظور إسلامي".

على الرغم من أن مالك بن نبي ليس المفكر الوحيد الذي تَحَدَّثَ عن التغيير الاجتماعي وكيفية تحقيقه، لكنه يُعتَبَرُ من أهم الذين تَحَدَّثُوا عن ضرورة إحداث التغيير في المجتمع العربي الإسلامي برؤية إسلامية مُتَمَيِّزَة، وعلى الرغم من أنه عَايَشَ الحضارة الغربية ونَهَلَ من ثقافتها وبعض أفكار فلاسفة الحضارة الغربيين، إلا أنه تَمَيَّزَ عن غَيرِهِ من المفكرين العرب الذين عادوا من أوروبا مُنبَهِرِينَ بها ومُكتَفِينَ بالتأكيد وِفقَ مَوَاقِفِهِم العِلمانِية على تَخَلُّفِ المجتمع الإسلامي، فقد عاش مالك بن نبي مُثقَلًا بِهُمُومِ مجتمعه العربي الإسلامي مُتَمَسِّكًا بِرُؤيَتِهِ المتميزة لمشكلاته سَاعِيًا إلى فَهمِها في ضَوءِ العقيدة الإسلامية.

لقد اختص مالك بن نبي بدراسة مشكلات الحضارة ساعيا على ضوء الفكرة الدينية إلى تَوجِيهِ تفكير وسلوك الفرد العربي المسلم إلى تحقيق مصلحة مجتمعه كشرط أساس لبلوغ الحضارة، وإن أهم ما يميز موقفه هذا هو ربطه بين كل المشكلات التي يعيشها المجتمع المسلم ومشكلة الحضارة، لذلك نجده قد تَعَمَّقَ في دراسة العناصر الرئيسة التي تساهم في بناءها فكان ِبحَقٍ أهم مفكر مسلم اهتم بدراسة مشكلة الحضارة العربية

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
moh.philo@yahoo.fr

الإسلامية. وعطفا على ما ذكرناه، فإننا نهدف في هذه الدراسة إلى تِبيَانِ مفهوم التغيير الاجتماعي وأهم عناصره حسب وجهة نظر مالك بن نبي وموقفه من كيفية بناء الحضارة من منظور إسلامي وذلك من خلال محاولة الإجابة عن بعض التساؤلات والتي أهمها: ما موقف مالك بن نبي من المجتمع؟ ما هي عناصر التغيير الاجتماعي عنده؟ وكيف يمكن بلوغ الحضارة حسب رأيه؟

أولا: مفهوم المجتمع وإمكانية التغيير

تُبَيِّنُ لنا كل مؤلفات بن نبي أن هناك تناقضا كبيرًا في المجتمعات الإسلامية يتمثل في الانفصال الموجود بين سلوكنا وعقيدتنا، حيث أن كل واحد منا مستعد للدفاع عن الإسلام بنفسه وبماله وبأولاده. ولكن بالمقابل مع هذا التصرف نجد أنه من الصعب جدا على الشباب المسلم أن يُخَصِّصَ جُزءًا من جُهدِهِ أو مرحلة من حياته للبحث والدراسة والتقصي من أجل إيجاد حلول لمشكلات نظرية وعملية يفيد بها مجتمعه والإنسانية جمعاء. هذا مثال من أمثلة كثيرة جدا عن هذا التناقض الموجود بين تفكيرنا وسلوكنا، وهو وضع يُبَيِّنُ أننا كمجتمعات عربية مسلمة في حاجة ماسة إلى التغيير.

لقد أدرك مالك بن نبي أننا شعوب انفعالية يُوَجِّهُنا الحماس ولا نَتَعَقَّلُ الأمور، وأن مشكلتنا الحقيقية ليست في فهم ديننا وإنما في فهم أنفسنا، وهذا ما يدعوا إليه الدين في حد ذاته، يقول مالك بن نبي: "فحين أقول: مشكلة مجتمع لا مشكلة دين، لا أريد أن أنزع المسلم من دينه وعقيدته بل حَرصِي عليه أن يبقى على دينه كَحِرصِهِ وأشد، ولكن ما أريد هنا: أن أُفَرِّقَ بين السُّنَنِ التي تجعل الإنسان عاجزا، والسنن التي تجعل الإنسان مجتهدا عَامِلا"(2). إن تَعَلُّقَ المسلمين بالأوهام وعدم فهمهم لسنن التغيير خصوصا تغيير ما بالأنفس هو من أكبر معوقات إمكانية التغيير، لذلك يرى مالك بن نبي كمفكر مُشَبَّعٍ بالثقافة الإسلامية أن التغيير الحقيقي هو الذي ينبع من النفوس، منطلقا من قوله تعالي: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"(3) ، وحتى ولو أن الكثير من حركات التغيير السابقة –كما تبين لنا من موقف مالك بن نبي- استدلت بهذه الآية

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
moh.philo@yahoo.fr

إلا أنها لم تَعِ حقيقة وطبيعة التغيير الذي تدعوا إليه الآية، فاكتفت هذه الحركات والمواقف بالتَّبَرُّكِ بكلام الله، كما أنه لم تدرك من المعاني الكثيرة لهذه الآية إلا المعنى الغيبي وأهملت التغيير الحقيقي المرتبط بالجوانب الأخلاقية والاجتماعية و التربوية و غيرها، وهي الجوانب التي ينبغي على المجتمع إذا أراد أن يُحَسِّنَ أوضاعه أن يهتم بها.

إن أهم ما فَهِمَهُ مالك بن نبي من الآية السابقة هو أنها تتحدث عن مشكلات دنيوية لا مشكلات أخروية، كما أنه حتى ولو أن الآية تتحدث عن تغييرين هما "تغيير الله لما بالقوم" و"تغيير القوم لما بأنفسهم" إلا أنه يرى أن تغيير القوم هو شرط تحقيق التغيير الإلهي، فالتغيير الذي قد يُحدِثُهُ الله في القوم مرتبط بالنِّعَمِ بصفة عامة كالصحة وسلامة الأعضاء والغنى وغيرها، أما التغيير الذي يقوم به القوم فيرتبط بما في الأنفس، وأن مصير المجتمع يَتَحَدَّدُ بمقدار تحقيقه لهذا التغيير واستعداده له، لذلك نجد أن الكثير من الآيات القرءانية هي دعوة للعودة إلى النفس وإصلاحها وذلك لأن النفس: "في حاجة إلى هَدمٍ ثم بِناءٍ في آن واحد، وإن مواريث القرون الماضية قد غَمَرَت النفوس بكثير من الآصار والأغلال فلابد من إزالتها وأن يحل محلها غيرها، كما لابد من إعادة الصفاء والوضوح للنفس"(4). وهذا ما يثبت لنا أن التغيير بالنفس شرط لإحداث التغيير بالقوم، أي أن التغيير النفسي يكون أولا ثم يأتي التغيير الاجتماعي، مع العلم أن الله منح الإنسان إمكانية أن يُغَيِّرَ ما بنفسه وإذا اعتقدنا غير ذلك فإننا سنقع في الفشل والكسل، وهذا هو حال المجتمعات المسلمة اليوم بما فيها المجتمع الجزائري. لكن قبل أن نتعرف أكثر على حقيقة التغيير وكيف يجب أن يحدث؟ نحاول أن نتعرف على موقف مالك بن نبي من المجتمع وما هو مفهومه عنده؟

يتميز مالك بن نبي كعالم اجتماع وفيلسوف حضارة برؤيته النقدية للكثير من المفاهيم التي لا يؤخذ بها جاهزة وإنما يحاول تجديدها ليجعلها تتناسب مع تصوره حول المجتمع ومشكلات الحضارة، لذاك نجده يتجاوز المفهوم التقليدي "الستاتيكي" للمجتمع - وهو المفهوم الذي يؤخذ به أغلب علماء الاجتماع المعاصرين- الذي يقوم على أنه

ر ت م د :2353 - 0367
ر ت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
moh.philo@yahoo.fr

تَجَمُّعُ أفراد يعيشون في إطار قوانين مُوَحَّدَة، و يؤكد مالك بن نبي على أن هذا التصور هو تحديد وصفي خارجي لا يعطي تفسيرا دقيقا للوظيفة التاريخية التي يجب على المجتمع أن يقوم بها، كما أنه لا يُفَسِّرُ تنظيمه الداخلي الذي قد لا يكون كُفئًا لأداء هذه الوظيفة، بالتالي فإن أغلب علماء الاجتماع حسب مالك بن نبي يخطئون عندما يطلقون صفة مجتمع على مجموعة من الأفراد، وهو أيضا الخطأ الذي يقع فيه الانثروبولوجيين أيضا عندما يَصِفُون الشعوب البدائية بالمجتمعات، انطلاقا من المعيار الكمي أو ما يصفه مالك بن نبي بمصطلح "التكديس".

يقدم لنا مالك بن نبي مفهوما جديدا للمجتمع يسميه "المفهوم الوظيفي" القائم على علاقة تبادلية تكاملية بين المجتمع وأفراده، فالأفراد يعملون للمصلحة العامة لهذا المجتمع والمجتمع يُوَفِّرُ لهم كل الظروف والصلاحيات التي تساعدهم على أداء مهامهم ووظائفهم(5). وما نلاحظه على هذا المفهوم الجديد للمجتمع هو أنه يتجاوز المفهوم السابق له من ناحية عدم حصر المجتمع في كمية الأفراد الموجودين فيه إلى التأكيد على أهمية الجانب الكيفي المتمثل في ضرورة التفكير والعمل المشترك بين كافة الأفراد في ما يخدم المجتمع ككل، أي التَّحَوُّل من الفردية إلى المجموع أو من الأنانية إلى الغيرية، وهذا ما يحقق مصلحة المجتمع والفرد على حد السواء ومنه قول مالك بن نبي: "إن ارتباط الفرد بالمجتمع هو الذي يحقق السعادة"(6). لأنه إذا عمل كل فرد من أفراد المجتمع عن قناعة على تحقيق مصلحة مجتمعه وجعل المصلحة العامة أسبق من مصلحته الخاصة فإن ذلك سيعود بالفائدة على الفرد في حد ذاته، وذلك لأن المجتمع هو من سيقدم له المقابل: "فالإنسان الذي يكون مجتمعه مجتمع حضارة لا يكون مُعَرَّضاً للحرمان من الضمانات الاجتماعية. فأنا حينما أحاول تحديد مجتمع أفضل، فكأنني أحاول تحديد أسلوب حضارة، إذ أنني حينما أحقق الحضارة أحقق جميع شروط الحياة"(7) وهذا ما يجعل من مهمة التغيير ليست فقط مهمة استعجاليه، وإنما في الوقت ذاته تعتبر مهمة صعبة تقتضي وجود أطراف قادرة على تحملها وأدائها على أحسن وجه.

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
moh.philo@yahoo.fr

هنا بالتحديد، يقترح علينا مالك بن نبي أن نوكل مهمة التغيير إلى مؤسسات تربوية معينة، فمثلما أن هناك مؤسسات تعليمية متخصصة بتعليم القراءة والكتابة لابد كذلك من مؤسسات لتعليم التغيير مع التأكيد على أن القراءة والكتابة هما أساس عملية التغيير: "فأهم شيء يَحُثُّ عليه القرءان ومن أجله أُنزِل الكتاب و أُرسِلَ الرُّسُل هو تغيير المجتمعات، فلهذا كان الإلحاح في القرءان لينظر الناس إلى سنن اللذين خلو من قبل"[8]. إن المحدودية في النظر تجعل الإنسان لا يرى أسلوبا آخر للحياة غير الأسلوب الذي يعيش عليه، وبالتالي فلن يدرك أبدا أهمية وضرورة التغيير لكي ينتقل إلى نمط أفضل من الحياة وهذا هو عيبنا نحن المجتمعات العربية، فعلى الرغم من أننا نملك كل الإمكانيات البشرية والمادية إلا أننا نعيش مشكلات كثيرة في كل مجالات الحياة ولا نسعى إلى حلها لأننا لا نفكر في التغيير ولا نسعى إلى تحقيقه.

ثانيا: دور شبكة العلاقات الاجتماعية في تحويل الفرد إلى شخص

لا يفهم من موقف مالك ن نبي من المجتمع على أنه يعطي الأولوية للمجتمع على حساب الفرد أو أنه يُنكِرُ دور الفرد في عملية التغيير وبالتالي في بناء الحضارة، بل على العكس من ذلك تماما إذ يكمن الإسهام الحقيقي لمالك بن نبي في تأكيده على أن الفرد الذي يُسهِمُ في بناء الحضارة ليس هو الفرد الذي يُنظَرُ إليه على أنه مجرد عضو في المجتمع والذي ينحصر مفهومه في صفاته الفطرية، وإنما هو "الشخص" الذي تكون لديه نزعة اجتماعية ورغبة في تكوين علاقات ايجابية مع كل أفراد مجتمعه سَعيًا منه إلى مشاركتهم المصلحة العامة، وعليه يعطي مالك بن نبي أهمية كبيرة لما أسماه بــ"عالم الأشخاص" إلى درجة أنه يربط التغيير الحقيقي في المجتمع بهذا العالم، و منه تأكيده على أن :"العمل الأول في طريق التعيير الاجتماعي، هو العمل الذي يُغَيِّرُ الفرد من كونه (فردا) Individu إلى أن يصبح (شخصا) Personne وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعة اجتماعية تربطه بالمجتمع"[9]. فكلما قَوِيَت العلاقات بين الأشخاص

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
moh.philo@yahoo.fr

قَوِيَت العلاقات بين الأفكار والأشياء، لأنه ليس هناك خَطَرٌ على تطور المجتمع مثل الخطر الذي تُشَكِّلُهُ النزعة الفردانية الموجودة فيه.

إن تفكك شبكة العلاقات الاجتماعية من أخطر مظاهر تَخَلُّفِ المجتمعات، وبالتالي هذا ما يتسبب في ابتعادها عن ركب الحضارة، ولكي يُبَيِّنَ لنا مالك بن نبي خطورة هذا التفكك على المجتمع يُحَدِّثُنا عن أنموذج من المجتمعات العربية وهو المجتمع الجزائري، حيث يصف لنا علاقة الفرد الجزائري بالمجتمع أثناء حقبة الاستعمار الفرنسي قائلا: "داخل الضباب يكون من العسير على الإنسان أن يَشُقَّ له طريقا مُعَيَّنًا، حتى لينتهي الفرد نفسه إلى فقد الصلة مع المجموع ومع الجماعة، الأمر الذي يُفضِي إلى تقويض الصلات الاجتماعية، فالجزائري الذي وُلِدَ ضمن هذه الشروط لم يكن شيئا آخر سوى مجرد فرد: أي كائن معزول عن جماعة وُضِعَت على هامش التاريخ من جراء (القابلية للاستعمار) كما أصبحت مُفَكَّكَة الأوصال بفعل الاستعمار حتى لقد كان يُشَبَّهُ الفرد الذي تَبَقَّى على قيد الحياة بنوع بشري مُنقَرِضٍ عَقِبَ كارثة جيولوجية"[10]. وبالفعل، فقد عمل الاستعمار الفرنسي على تجهيل المجتمع الجزائري بتاريخه وعَزْلِ أفراده عن بعضهم البعض، لأنه كان يدرك أن إضعاف المجتمع لا يكون إلا بقطع الصِّلَةِ بينه وبين أفراده أي بتفكيك شبكة العلاقات الاجتماعية، وهذا ما نجح فيه فعلا لأن المجتمع الجزائري بعد الاستقلال وَرِثَ مشكلات وأزمات كثيرة اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية وغيرها جعلته متأخرا عن ركب الحضارة.

إن تقديم حلول لكل هذه المشكلات وتحقيق الهدف الأهم والذي هو بلوغ الحضارة لا يكون إلا بإحداث التغيير الذي يجب أن يَمس كل فرد من أفراد المجتمع، حيث يجب على المجتمع أن يُغَيِّرَ من طريقة تفكير أفراده وسلوكياتهم من الجانب البدائي إلى الجانب الاجتماعي، أي من التفكير في المصلحة الخاصة إلى التفكير في المصلحة العامة، لأن شبكة العلاقات الاجتماعية هي العامل الأساس المتحكم في عملية التغير والذي يضمن تحقيق هذه العملية وبالتالي يمكن للمجتمع أن يصبح مجتمعا متحضرا، وتأكيدا منه على

ر.ت.م.د :2353 - 0367
ر.ت.م.د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
moh.philo@yahoo.fr

أهمية شبكة العلاقات الاجتماعية يقول مالك بن نبي : "وهكذا، يمكن أن نتعلم في هذه الظروف المعنى الأولي للحضارة، وأن معنى التحضر: أن يتعلم (الإنسان) كيف يعيش في جماعة، ويدرك في الوقت ذاته الأهمية الرئيسة لشبكة العلاقات الاجتماعية في تنظيم الحياة الإنسانية من أجل وظيفتها التاريخية، فإذا فهمنا هذا أدركنا في هذه الحالة قيمة نظام الدفاع الذي يُنَصِّبُهُ مجتمع بطريقة غريزية حول شبكة علاقاته كيما يحميها من أي مساس بها"[11].

تعمل فلسفة التغيير عند مالك بن نبي على إعطاء معاني جديدة لمصطلحات قديمة، إذ لم يعد الفرد مجرد عضو في مجتمع وإنما أصبح يُنظَرُ إليه على أنه شخص يعيش مع أشخاص آخرين داخل المجتمع، كما أن مفهوم المجتمع لم يعد ينحصر في كونه مجموعة من الأفراد، وإنما أصبح مجموعة من الأشخاص الذين يسعون جميعا ودون استثناء إلى تحقيق المصلحة العامة للمجتمع إذا أرادوا الارتقاء بمجتمعهم ليصبح مجتمعا متحضرا، وهذا دون أن يكون هناك تعارض أوتناقض بين مصلحة الفرد ومصلح مجتمعه، و على هذا: "نستطيع أن نقرر أن أَوَّلَ عمل يقوم به مجتمع معين في طريق التغيير مشروط باكتمال هذه الشبكة من العلاقات. وعلى هذا نستطيع أن نُقَرِّرَ أن شبكة العلاقات هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به مجتمع ساعة ميلاده، ومن أجل ذلك كان أول عمل قام به المجتمع الإسلامي هو الميثاق الذي ربط بني الأنصار و المهاجرين، وكانت الهجرة نقطة البداية في التاريخ الإسلامي لا لأنها تتفق مع عمل شخصي قام به النبي، و لكن لأنها تتفق مع أول عمل قام به المجتمع الإسلامي، أي مع تمكين شبكة العلاقات الاجتماعية"[12]. بالتالي لا يمكن تصور تغيير اجتماعي دون وجود شبكة علاقات اجتماعية، لأنها هي التي تجسد العمل الاجتماعي المشترك وهي التي تنقل المجتمع من البداوة إلى الحضارة، و إن كان للدين دور كبير في هذا التحول أو التغيير.

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
moh.philo@yahoo.fr

ثالثا: دور الفكرة الدينية في إحداث التغيير الاجتماعي

يرى مالك بن نبي أن للفكرة الدينية تأثيرا كبيرا على النهوض الحقيقي بالمجتمع، فحتى ولو كانت شبكة العلاقات الاجتماعية القائمة بين الأفراد هي التي تُجَسِّدُ التغيير الحقيقي وبالتالي ميلاد المجتمع، إلا أن الفكرة الدينية هي العامل الأول والرئيس الذي يَنتُجُ عنه هذا الميلاد، بل هي التي تعمل على توطيد شبكة العلاقات الاجتماعية في حد ذاتها، لذلك نجد أن مالك بن نبي يتحدث في كل مؤلفاته عن دور الدين أو ما أسماه بـ"الفكرة الدينية" في إحداث التغيير الاجتماعي، ومنه تأكيد على أنه: "سواء كنا بصدد المجتمع الإسلامي أو المجتمع المسيحي أم كنا بصدد المجتمعات التي تَحَجَّرَت اليوم أو اختفت تماما من الوجود، نستطيع أن نُقَرِّرَ أن الفكرة التي غرست بذرتها في حقل التاريخ هي فكرة دينية، و معنى هذا أن (الظرف الاستثنائي) الذي يَلِدُ مجتمعا يتفق في الواقع مع الفكرة الدينية التي تَحمِلُ مقاديره كما تحمل النطفة جميع عناصر الكائن الحي الذي سيخرج فيما بعد إلى الوجود"[13]. كما أن العلاقات الاجتماعية التي تعبر عن خصوصية مجتمع معين ترجع في الأصل إلى الدين الذي يدينه ذلك المجتمع، أي إلى العلاقة التي تربط الإنسان بربه والتي تحدد كذلك طبيعة المعاملات خصوصا الأخلاقية بين الأفراد داخل المجتمع، لكن الفكرة الدينية تأثر ايجابيا على العلاقات الاجتماعية إذا كانت قوية أما إذا ضعفت فان تأثيرها سيكون سلبيا[14].

تظهر الأسبقية والأولوية للفكرة الدينية على شبكة العلاقات الاجتماعية من ناحية أن العلاقة الروحية بين الإنسان وخالقه هي التي توجه العلاقة الاجتماعية بين الفرد وغيره من الأفراد الآخرين في المجتمع، و منه فإن الفكرة الدينية هي التي تجعل الأفراد يفكرون ويعملون على المساهمة في بناء الحضارة: "فالعلاقة بين الله والإنسان، هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، وهذه بدورها تربط بين الإنسان وأخيه الإنسان" (...)فعلى هذا يمكننا أن ننظر إلى العلاقة الاجتماعية والعلاقة الدينية معا من الوجهة التاريخية على أنهما حدث، ومن الوجهة الكونية على أنهما عنوان على حركة تطور اجتماعي واحد"[15]. وهذا ما حدث

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
moh.philo@yahoo.fr

عندما ظهرت الدعوة المحمدية إلى الدين الإسلامي، حيث كان المجتمع العربي آنذاك يعيش في تخلف وجاهلية وحروب ومشكلات اجتماعية وأخلاقية وغيرها، كما كانت تطغى عليه النزعة الفردانية والسعي إلى التعدي على الآخرين، لكن لَمَّا جاء الدين الإسلامي الذي دعا إلى عبادة الله وإلى ترك الأنانية والعمل على المشاركة مع الآخرين في كل ما يخدم المصلحة المشتركة بين الناس، تَرَتَّبَ عن ذلك اتحاد المسلمين نتيجة إلتِفافِ المسلمين حول هذا الدين الذي وَحَّدَهُم، وبالتالي هذا ما أدى إلى ميلاد مجتمع إسلامي جديد وميلاد الحضارة العربية الإسلامية.

يعطي مالك بن نبي الفكرة الدينية أهمية كبيرة في بناء الحضارة من ناحية أنها تأثر على سلوك الشخص و تَوَجُّهِهِ لكي يقم بدوره في بناء حضارته. لكن كيف تأثر الفكرة الدينية ايجابيا في الإنسان؟ يجيبنا بقوله: "إن الفرد ليس أساسه إلا "الإنسان الطبيعي" أو الفطري غير أن الفكرة الدينية سوف تتولى إخضاع غرائزه إلى "عملية شرطية" تُمَثِّلُ ما يُصطَلَحُ عليه في علم النفس الفرويدي بـ"الكبت"، وهذه العملية الشرطية ليس من شأنها القضاء على الغرائز، ولكنها تَتَوَلَّى تنظيمها في علاقة وظيفية مع مُقتَضَياتِ الفكرة الدينية: فالحيوية الحيوانية التي تُمَثِّلُها الغرائز بصورة محسوسة،لم تُلغَ ولكنها انضبطت بقواعد نظام معين"(16). وبالتالي عندما تأثر الفكرة الدينية على الإنسان يحدث تَحَوُّلٌ في سلوكه من الغريزة إلى البعد الروحي،الأخلاقي، وبالتالي يصبح شخصا تربطه علاقات اجتماعية مع بقية الأشخاص داخل المجمع، و هنا تساهم الفكر الدينية في إحداث التغيير من الإنسان الطبيعي إلى الإنسان المتحضر، أو من المجتمع المتخلف إلى المجتمع المتحضر.

رابعا: عناصر التغيير الاجتماعي

إن الحديث عن التغيير بصفة عامة عند مالك بن نبي لا يَنفَكُّ عن أن يكون هدف المشروع ككل في منهجيته الفكرية ومفاهيمه المركزية، وهذا ما فرضه عليه الواقع الذي اشتغل عليه وحساسية المرحلة التي تزامنت معها أفكاره، فهو واقع نشار على الإنسان المسلم خصوصا مع ظروف الاستعمار والتخلف و لا يتفق مع ما أثيبه الوحي للمجتمع الإسلامي

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
moh.philo@yahoo.fr

وللأمة المسلمة في صورة مثالية وأدوار طلائعية مما يحتم تتبع ضوابط قيمية بمناهج رصينة حددها الوحي لتحصيل الوضع الأفضل والواقع الأمثل الذي تحقق من قبل في تاريخ المسلمين(17) . إن ما أنتجه المجتمع الإسلامي من قبل كان نابعا من محتوى التغيير الأساسي في النفسية العربية، وقد انطلقت في ذلك التركيب الهائل للعناصر التي لا غنى عنها لكل حضارة وهي: الإنسان والتراب والوقت. من هنا تنمو الفكرة وتحدد بعدها في إطار المجتمع باعتبارها المبدأ لحركة تمارس طاقاتها بمعيار وحدة العمل الاجتماعي وخياراته. هكذا تتحرك الأفكار والقيم الرئيسة لمسيرة الحضارة(18) . لذلك يتساءل الكثيرون لماذا لم تعد الحضارة الإسلامية في أوج تطورها كما كانت؟ لماذا زال تأثير الفكرة الدينية عليها؟.

إن الجواب يكمن في أن الفرد المسلم هو الذي تخلى عن الفكرة الدينية ولم يعد قادرا على أداء مهمته التاريخية التي قد بدأت من قبل مع ظهور الإسلام، وهنا يتحدث مالك بن نبي عن أهمية "التوجيه" في إعداد التغيير، أي توجيه عناصر التغيير الاجتماعي الثلاث. ولكن قبل أن نفصل في هذه العناصر نتعرف على مفهوم التوجيه عند مالك بن نبي الذي يقول عنه: "التوجيه هو تَجَنُّبُ هذا الإسراف في الجهد وفي الوقت، فهناك ملايين من السواعد العاملة والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية صالحة لأن تُستَخدَمَ في كل وقت. والمهم هو أن نُدِيرَ هذا الجهاز الهائل المُكَوَّنِ من ملايين السواعد والعقول في أحسن ظروفه الزمنية والإنتاجية المناسبة لكل عضو من أعضائه، وهذا الجهاز حين يتحرك يحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود، وفي هذا تكمن أساسا فكرة توجيه الإنسان الذي تُحَرِّكُهُ دَفعَةٌ دينية وبلغة الاجتماع: الذي يكتسب من فكرته الدينية معنى (الجماعة) و معنى (الكفاح)"(19).

إن ما أنتجه المجتمع الإسلامي من نشاط فكري كان نابعا من محتوى التغيير الأساسي في النفسية العربية حين نُزولِ الوحي ومخاطبة الرسالة النبوية روح المؤمنين، وكانت الشعوب التي بعدهم تحمل بذور التغيير كما في لحظة الرسالة نفسها، أي حتى تلك اللحظة المشحونة والقوية، إذ من طاقة تلك اللحظة فاضت الإمكانيات المتدفقة في

ر ت م د :2353 - 0367
ر ت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
moh.philo@yahoo.fr

مجرى الزمن وانطلقت نواة ذلك التركيب الهائل للعناصر التي لا غنى عنها في كل حضارة: الإنسان والتراب والوقت.[20] إن الإنسان هو صاحب الفكرة ومُبدِعُها، أما التراب فهو الشيء الذي يتملكه الإنسان، في حين أن الوقت هو المدة التي يحتاجها الإنسان لتحويل فكرته إلى شيء: "فأنا إذن حينما أحاول التخطيط لحضارة فليس عَلَيَّ أن أفكر في منتجاتها، وإنما في ثلاثة أشياء: في الإنسان والتراب والوقت، فحينما أَحُلُّ هذه المشاكل الثلاث حَلًا علميا بأن أبني الإنسان بِناءً متكاملا وأعتني بالتراب والزمن، فإنني حينئذ قد كَوَّنتُ المجتمع الأفضل، كَوَّنت الحضارة التي هي الإطار الذي فيه تتم للفرد سعادته لأنه يُقَدِّمُ له الضمانات الاجتماعية الكافية"[21]. هكذا، يحصر مالك بن نبي عناصر التغيير الاجتماعي في ثلاثة عناصر مُحَدَّدَة هي الإنسان والتراب والوقت، و هي العناصر الأساسية التي أَكَّدَ عليها في كل مؤلفاته والتي لا يمكن بناء الحضارة دون توافرها معا، لذلك نجده يؤكد مرة أخرى على أنه: "يجب أولا أن نضع رجالا يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى"[22]. ولكي ندرك قيمة كل عنصر من هذه العناصر الثلاث ونفهم طبيعة الدور الذي تؤديه في بناء الحضارة كما تصوره مالك بن نبي، نعرض هذه العناصر على التوالي حسب الضرورة والأهمية التي حددها لها مالك بن نبي.

1- الإنسان:

بالنسبة إلى العنصر الأول من عناصر الحضارة والذي هو الإنسان، فإنه يؤثر في المجتمع بمؤثرات ثلاث أولا بفكره أو بثقافته، وثانيا بعمله أو بالجهد الذي يقوم به خِدمةً للمجتمع وثالثا بماله، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الصلة الوثيقة بين الإنسان والحضارة وذلك: "لأن الإنسان هو الشرط الأساس لكل حضارة، وأن الحضارة تؤكد دائما الشرط الإنساني"[23]. لقد تبين لمالك بن نبي أن هذه الجوانب الثلاث أي الثقافة والعمل والمال، لم تنل حظها من الاهتمام الكبير في المجتمع الجزائري لذا وجب علينا أن نُفَعِّلَ علاقة الفرد

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
moh.philo@yahoo.fr

بمجتمعه بأن نُوَجِّهَهُ في هذه المجالات الثلاث وهي توجيه الثقافة وتوجيه العمل وتوجيه رأس المال.

1- أ- توجيه الثقافة:

لقد تبين لمالك بن نبي أن الثقافة من أكبر المشكلات الاجتماعية، فالثقافة حسبه هي التعبير الحسي عن علاقة الفرد بهذا العالم وبالجمال الروحي الذي ينمو في وجوده النفسي، وأن الفرد إذا ما فقد صلته بالمجال الثقافي فإنه يموت موتا ثقافيا(24). و إن مشكلة الثقافة في ارتباطها بالعالم العربي والإسلامي لها ميزة خاصة تتمثل في :"خلق واقع اجتماعي لم يوجد بعد"(25). فإذا كانت تعريفات الثقافة في الفكر الغربي ترجعها إما إلى عالم الأفكار وإما إلى عالم الأشياء، فإننا في العالم العربي في حاجة إلى ثقافة تخلق واقع اجتماعي جديد، أي أن مشكلتنا تتمثل في أنه ليس لدينا ثقافة تُعَبِّرُ عن سلوك وواقع اجتماعي مميز خاص بنا، لذلك تتجلى علاقة الثقافة بالحضارة في كون أن الثقافة: "تسمح للإنسان بأن يسيطر على ذاته وأن يسيطر على الأشياء التي ابتدعتها عبقريته، أي بكلمة مختصرة أن يتحضر"(26).

لقد فهم مالك بن نبي الثقافة على أنها علاقة تبادلية بين "عالم الأفكار" و"عالم الأشياء"، أي بين الفرد و المجتمع، فكل من الفكرة والشيء يُسهِمانِ في ظهور الثقافة و تطورها، وهذا ما أسماه مالك بن نبي بـ"العلاقة المتبادلة" بين سلوك الفرد والمجتمع، و منه يصل مالك بن نبي إلى التأكيد على أن: "الثقافة هي إذا ما رددنا الأمور إلى مستوى اجتماعي، هي حياة المجتمع التي بدونها يصبح مجتمعا ميتا"(27)، و هذا ما يُفَسِّرُ لنا سر العدل الذي ساد المجتمع الإسلامي إِبَّانَ عهد الخلفاء الراشدين، حيث لا يوجد فرق بين الخليفة وأي بَدَوِيٍّ بسيط، فكل فرد يفكر بنفس الطريقة أي خِدمَةً لمصلحة المجتمع ككل، أما مشكلتنا اليوم فليست في فهم الثقافة أو الإجابة عن سؤال: ما هي الثقافة؟، و إنما في تجسيد الثقافة على المستوى العملي والاجتماعي، و هنا يتجلى دور المثقفين أو النخبة لأنه: "يَتَعَيَّنُ على النخبة أن تقوم بدورها في بناء المجتمع الجزائري الجديد. إن عالم

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
moh.philo@yahoo.fr

الأفكار لدينا يجب أن تَبنِيهِ تلك النخبة، تلك هي مهمتها الأساسية وعليها -في هذا المجال دون شك- أن تحرر أذهاننا من بعض البلبلة التي فيها. والعالم ليس مجرد (تكوين) للأشياء والأفكار على الأخص فيما يتعلق بالأفكار التي يعني تكوينها الاختلال والفوضى والتوفيقية والمواطنة العالمية، أي كل ما يجعل الفكرة تفقد أصالتها وقيمتها البناءة"[28].

هكذا، يتناول مالك بن نبي مشكلة الثقافة من ناحيتين، الأولى تعريفها باعتبارها واقعة اجتماعية، والثانية باعتبار وظيفتها في صورة منهاج تربوي يُمَكِّنُ من تحقيقها عمليا عن طريق تركيب عناصرها. وعملية التثقيف تؤدي وظيفتين إحداهما سلبية وثانيهما ايجابية، الأولى تتمثل في تصفية المجتمع من عاداته وتقاليده السلبية والميتة، أما الوظيفة الايجابية فهي خلق قيم وسلوكيات فَعَّالَة تساهم في بناء المجتمع[29]. يتضح لنا موقف مالك بن نبي من مشكلة الثقافة، و المتمثل أساسا في أنه ليس لدينا فهم دقيق بالثقافة، لأنه لا توجد علاقة مباشرة بين الثقافة ومجتمعنا العربي الإسلامي، بمعنى عدم إسهامه فيها، ولكي نحقق مشروعا ثقافيا على غرار المجتمع الغربي يجب علينا أن نهتم بتوطيد الصلة بين أفراد المجتمع، أي ما يسميه مالك بن نبي بـ"عالم الأشخاص" وذلك وفق رؤية أخلاقية تربوية سليمة.

1- ب- توجيه العمل

يكتسي هذا الجانب أهمية كبيرة عند مالك بن نبي، ذلك لأنه يرى أن العمل هو أهم شروط التغيير، إذ لا يمكننا أن نَبنِيَ حضارة دون أن نعمل، ومادام مالك بن نبي تحدث عن توجيه الثقافة على الرغم من أننا لا نملك ثقافة بالمعنى الذي تعرفنا عليه من قبل فكيف لا يولي العمل كل هذه الأهمية؟ خصوصا ونحن نملك كل الإمكانات البشرية والمادية[30]. إن توجيه العمل في مرحلة التكوين الاجتماعي بعامة يعني سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد بما في ذلك جهد الراعي وصاحب الحرفة والتاجر والطالب والعالم والمرأة والمثقف والفلاح، وكل أفراد المجتمع دون استثناء مهما كانت مكانتهم

ص . ص 289 - 311
رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
moh.philo@yahoo.fr

الاجتماعية حيث يضع كل منهم في كل يوم لَبِنَةً جديدة في البناء[31]. إنه ولكي نحقق النهضة يجب أن ننقل المجتمع من حالة العطالة والعبث إلى حالة العمل المُوَجَّه، إنه سير الجهود الاجتماعية في اتجاه واحد وهو في البداية عمل تَطَوُّعِي له هدف تربوي لا كَسبي. و يرى مالك بن نبي أنه يجب أن يكون التوجيه المنهجي للعمل شرطا عاما أولا ثم وسيلة خاصة لكسب الحياة، لأن هذا التوجيه حين يَتَّحِدُ مع توجيه الثقافة وتوجيه رأس المال يفتح مجالات عديدة للعمل[32]. ويفهم العمل هنا على أنه كل نشاط ايجابي مُوَجَّهٌ نحو خدمة المصلحة العامة، أي أنه عندما يساهم كل شخص داخل المجتمع بأداء دور ايجابي فإنه يؤدي إلى تقدم المجتمع.

1- ج- توجيه رأس المال

على غرار موقفه من مشكلة الثقافة، يرى مالك بن نبي أن مشكلة رأس المال في العالم الإسلامي لا تطرح بنفس الطريقة التي طُرِحَت بها في المجتمع الغربي، مثلما نجدها عند ماركس مثلا الذي نظر إلي رأس المال على أنه وسيلة في يد طبقة سياسية، و إنما نحن في المجتمع الإسلامي خصوصا في النصف الأول من القرن العشرين لم يتشكل بعد لدينا رأس المال بنفس الطريقة وبالتالي وجب علينا أن ننظر إلى رأس المال كآلة اجتماعية تُحَقِّقُ لنا التقدم المادي، لكن كيف يُعَرِّفُ مالك بن نبي رأس المال؟ يجيبنا بقوله: "إن رأس المال في جوهره هو المال المتحرك التي يتسع مجاله الاجتماعي بمقتضى حركته ونموه في محيط أكبر من محيط الفرد، وأقصى من المقدار الذي تُحَدِّدُهُ حاجاته الخاصة"[33]. لذلك تتحدد قيمة وأهمية رأس المال في المجتمع الإسلامي بقدر مساهمته في تطوير هذا المجتمع، ولن تتأتى هذه المساهمة إلا إذا كان هناك توجيه لرأس المال حيث لا يرتبط هذا التوجيه تحديدا بالكم وإنما بالكيف، أي بمقدار النشاط والعمل والفائدة التي يخلقها رأس المال، أي أن المساهمة الحقيقية لرأس المال في تَقَدُّمِ المجتمع وتَحَضُّرِهِ لا تكون بالمقدار الكمي، و إنما بمدى مساهمته في تنشيط الفكر والحياة الاجتماعية.

رت م د :2353 - 0367
رت م إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
moh.philo@yahoo.fr

2- التراب:

يُعَدُّ التراب أحد أهم عناصر الحضارة ولا يتحدث مالك بن نبي عن التراب كتراب بالمعنى المادي، و إنما عن القيمة الاجتماعية للتراب، لذلك يقول: "حينما تتكلم عن التراب فنحن لا نبحث في خصائصه وطبيعته، و لكننا نتكلم عنه من ناحية قيمته الاجتماعية، وهذه القيمة الاجتماعية للتراب مستمدة من قيمة مالكيه"(34). فمشكلتنا الآن في الجزائر مثلا هو أننا لا نعطي التراب حَقَّهُ ولا نعرف كيف نستفيد منه لا من ناحية استغلاله زراعيا ولا من ناحية حمايته من الأخطار التي تَلحَقُ به خصوصا منها ظاهرة التصحر التي أَثَّرَت سلبا على الأراضي الصالحة للزراعة فقللت مساحتها، كما أَثَّرت سلبا على الإنسان ذاته وجعلته يترك البادية هِجرَةً إلى المدينة. لكن بالمقابل نجد أن الكثير من الدول الغربية عرفت كيف تُقَدِّرُ قيمة التراب كعنصر من عناصر الحضارة وتحافظ عليه من خلال التشجير مثلا الذي يعود بفوائد كثيرة، سواء على البيئة الجغرافية أو على الإنسان على حد السواء.

هكذا يربط مالك بن نبي بين تقدم الحضارة وبين قدرتها على استغلال التراب وحسن توظيفه، لأنه لاحظ أن الحضارة العربية الإسلامية في أوج تطورها كانت تولي هذا الجانب أهمية كبيرة، عكس ما نلاحظه اليوم حيث أصبحنا نهمل قيمة التراب وتحديدا قيمته الاجتماعية والاقتصادية وهنا يقوا مالك بن نبي: "إننا حين نتكلم عن التراب، فلا نبحث في خصائصه وطبيعته، فليس هذا البحث من موضوع الكتاب، ولكننا نتكلم عنه من حيث قيمته الاجتماعية وهذه القيمة مستمدة من قيمة مالكيه، فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة وحضارتها متقدمة يكون التراب غالي القيمة، وحيث تكون الأمة متخلفة يكون التراب على قدرها من الانحطاط"(35). فالتراب عند مالك بن نبي ليس مجرد فلاحة الأرض وزراعتها، بل هو مجال يساهم الإنسان من خلال في بناء حضارته، خصوصا إذا استغل الوقت لتحقيق هذا الهدف.

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
moh.philo@yahoo.fr

3- الوقت

يرى مالك بن نبي أن مشكلتنا الحقيقية في العالم الإسلامي هي مشكلة الوقت، لأننا لا نُقَدِّرُهُ ولا نستغله في البناء الحضاري للمجتمع، لأن الوقت إذا لم يُستَغَلَّ في التحصيل والعمل لن يكون له أي قيمة، لذا وجب علينا توجيه الوقت كأهم عناصر الحضارة، وهنا يقول عنه مالك بن نبي: "إن وقتنا الزاحف نحو التاريخ لا يجب أن يَضِيعَ هَبَاءً كما يهرب الماء من ساقية خربة، و لا شك أن التربية هي الوسيلة الضرورية التي تُعَلِّمُ الشعب العربي الإسلامي تماما قيمة هذا الأمر"[36]. فإذا أردنا أن نُوَظِّفَ عامل الزمن في بناء حضارتنا وجب علينا الاستفادة منه عمليا فنربط وقتًا معين بعمل معين يكون هذا العمل في خدمة المصلحة العامة للمجتمع، لذا ما يفسر لنا التقدم الكبير الذي عرفته أغلب الدول الأوروبية بعد الحرب العالمية الثانية هو استغلالها للوقت.

هكذا، لا يمكن إحداث التغيير الاجتماعي إلا إذا توافرت هذه العناصر الثلاث مجتمعة، و التي هي الإنسان و التراب و الزمن، فكل عنصر من هذه العناصر الثلاثة له أهميته الخاصة في بناء الحضارة، ولكن هذه الأهمية التي تميز كل عنصر لا تَتَأَتَّي إلا من خلال علاقته بالعنصرين الآخرين. يعطينا مالك بن نبي مثالا يبين لنا من خلاله الأهمية التي تكتسبها هذه العناصر مجتمعة فيقول: "إن المصباح الذي نستنير به، و الأفكار التي وَجَّهَت أمر تجهيزه والآدميون الذين قاموا بعملية انجازه تُمَثِّلُ جميعا منتجات اجتماعية لحضارة معينة(...)فالتراب يتمثل ضمنا في صورة مواد أولية. أما الزمن فيندمج داخل سائر الاِطِّراد العلمي والفني الواقع بين اكتشاف الظاهرة الكهربائية حوالي نهاية القرن الثامن عشر وبين تطبيقه في ميدان الإنارة حوالي منتصف القرن التاسع عشر، ذلك إن الزمن يمثل نفس الركيزة التي يقوم عليها هذا الاطراد. وأما الإنسان فينخرط ضمن التدخل البشري (اليدوي والذهني) في هذا الاطراد. وإذن فالمصباح باعتباره نتاجا للحضارة يمثل في الواقع إنتاجا للإنسان والتراب والزمن"[37].

ص . ص 289 - 311
رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
moh.philo@yahoo.fr

خامسا: هدف التغيير الاجتماعي بناء الحضارة

تبين لنا فلسفة التغيير عند مالك بن نبي أنه إذا أراد المجتمع أن يبني حضارة لابد عليه أن يبني أشخاصا لا أن يُكَدِّسَ أفرادا ومن قوله: "الحضارة ليست كومة من الأشياء والأفكار، ولكنها بناء يعكس عبقرية البلد وشخصيته"[38]. لذلك نجد أن مالك بن نبي لا يتوقف عند حدود سرد المعطيات التاريخية في ظهور الحضارات كما نجد عند أغلب المؤرخين وعلماء الاجتماع، وإنما يلجأ إلى التحليل النفسي لفهم الجوانب الروحية والنفسية التي تساهم حسب رأيه بشكل فَعَّال في بناء الحضارة، إذ نجده يؤكد في إحدى أقواله على أن الحضارة يجب: "أن تُحَدَّدَ من وجهة نظر وظيفية: فهي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يُقَدِّمَ لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نُمُوِّهِ، فالمدرسة والمعمل والمستشفى ونظام شبكة المواصلات والأمن في جميع صُوَرِهِ عبر سائر تراب القطر واحترام شخصية الفرد، تُمَثِّلُ جميعها أشكالا مختلفة للمساعدة التي يُرِيدُ ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه"[39]. وإن كان ابن خلدون قد أسهم إسهاما كبيرا في هذا المجال إلا أن ما يعيبه عليه مالك بن نبي هو أنه توقف عند إحدى منتجات الحضارة وهي الدولة، لكنه لم يسهم كثيرا في دراسة الحضارة ذاتها، وحتى ولو أن ماركس اهتم بدراسة عوامل قيام الحضارة، إلا أن مالك بن نبي يرى أنه اهتم فقط بالجوانب المادية وأهمل الجانب الروحي كعامل مؤثر في بناء الحضارة، لذلك نجد مالك بن نبي قد تعمق في مفهوم الحضارة ومراحلها التي يقول عنها: "نحن نعلم مسبقا أن حضارة معينة تقع بين حدين اثنين: الميلاد والأفول، وإذن فنحن نملك هنا نقطتين اثنتين في دورتها باعتبارهما ليسا محل نزاع، فما الذي يمكننا أن نضع من طور انتقالي يتوسط هذين الخطين، إنه: الأوج"[40]. هكذا، فان الحضارة كما يبين لنا مالك بن نبي تمر بهذه المراحل الثلاث ألا وهي الظهور والتطور ثم الانحطاط، وعلى الرغم من أن ما يحسب لما بن نبي إسهامه الكبير في ضبط مفهوم الحضارة وكذا توضيح أهم المراحل

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
moh.philo@yahoo.fr

التي تمر بها، إلا أنه استفاد في ذلك كثيرا من ابن خلدون وكتابه "المقدمة" لأنه كان قد أشار إلى علاقة التشابه بين المراحل التي يمر بها الإنسان في حياته ومراحل تطور الحضارة وذلك عندا قال: "الحضارة غاية للبداوة، وأن العمران كله من بداوة وحضارة وملك، كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمرا محسوسا وتبين في العقول والنقول أن الأربعين للإنسان غاية في تزايد قواها ونموها، وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة على أثر النمو برهة ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط، فلتعلم أن الحضارة في العمران كذلك لأنها غاية لا مزيد وراءها".[41]

يرى مالك بن نبي أن الحضارة تبدأ ببزوغ فكرة دينية تقوم بتركيب عناصر الحضارة وتنظم الطاقة الحيوية للأفراد، حيث يتحرر الفرد من هيمنة الغريزة ويخضع للروح وفي هذه المرحلة تصل شبكة العلاقات الاجتماعية إلى قِمَّةِ كثافتها، حيث يرى أن هذه المرحلة تُعَبِّرُ عنها الدعوة المحمدية ومرحلة الخلافة الراشدة وتنتهي هذه المرحلة بمعركة صفين. أما المرحلة الثانية فتنعطف فيها الحضارة بسبب المشكلات المادية الناتجة عن توسع المجتمع، فَتَكّفُّ الروح عن السيطرة على الغرائز ويبدأ عهد العقل ويعادل هذا المنعطف في الحضارة الإسلامية المرحلة الأموية والعباسية، وهنا عندما لا يقدر العقل على كَبحِ الغرائز تدخل الحضارة مرحلة الانحطاط وتتفكك شبكة العلاقات الاجتماعية وتنتهي بها دورة الحضارة.[42] و للتوضيح أكثر بالنسبة إلى مرحلتي العقل والغريزة، نؤكد على أن مرحلة العقل هي تجسيد الروح في العقل، ولكن ليست هي الروح عندما كانت الفكرة الدينية توجه المجتمع وإنما هي تَنَازُلُ الروح إلى عالم العقل، وقوة العقل وسلامته مستمدة من قوة الروح والإيمان. أما بالنسبة إلى مرحلة الغريزة ففيها يَتَحَلَّلُ المجتمع من علاقاته الاجتماعية وتتغير القيم والمفاهيم، فالرذيلة تصبح فضيلة والملتزم بقيمه يصبح متخلفا رجعيا، وقد سَمَّى مالك بن نبي هذه المرحلة بمرحلة ما بعد الحضارة[43].

هكذا، تمر الحضارة حسب مالك بن نبي بمراحل ثلاث هي "مرحلة الروح" التي توجهها الفكرة الدينية، والتي هي الإسلام في حالة المجتمع الإسلامي، لكن فيما بعد عندما تتوسع

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
moh.philo@yahoo.fr

الحضارة فإنها تحتكم إلى العقل، ثم تبدأ الغرائز في التحرر من قيد الروح وهذا ما يؤثر سلبا على نفسية الفرد وأخلاقه فيزول التأثير الايجابي لشبكة العلاقات الاجتماعية وتستعيد الغريزة سيطرتها على المجتمع والفرد على حد السواء فتنهار الحضارة.

خاتمة

يُعتَبَرُ مالك بن نبي من أهم المفكرين العرب المسلمين المعاصرين الذين قَدَّمُوا إسهامات كبيرة في مجال فلسفة الحضارة، وإِنَّ أهم ما يميزه هو أنه اختص بدراسة الحضارة ومشكلاتها، فكان أن قدم تصورات جديدة حول مفهومها وحول كل المفاهيم القريبة منها، فَبَيَّنَ لنا أنه لا يمكن بناء الحضارة إلا إذا كان المجتمع قادرا على أداء مهمة البناء الحضاري، كما تعمق في توضيح طبيعة العلاقة التي يجب أن تكون بين الفرد ومجتمعه وما يجب أن يقدمه هذا الفرد للمجتمع حتى يساهم في البناء الحضاري لمجتمعه، ناهيك عن تأكيده على أهمية البعد الديني ودوره في توطيد العلاقات الاجتماعية بين الأفراد وبالتالي مدى مساهمة الدين في بناء الحضارة، لكن الوضع الذي يعيشه المجتمع العربي اليوم يدل على أنه بعيد عن مرحلة التحضر.

لقد أدرك مالك بن نبي أن المجتمعات العربية لازالت بعيدة عن الحضارة، لأننا نعيش أوضاعا متأزمة و أن عيبنا هو أننا لا نُشَخِّصُ المشكلات الحقيقية ولا نعمل على حلها، فمشكلاتنا كثيرة كالفقر والجهل والمرض والتبعية للآخرين وكل مظاهر التَّخَلُّف، وعلى الرغم من أن لدينا الكثير من الإمكانيات المادية والبشرية لكننا لا نعرف كيف نُوَظِّفُها في حل مشكلاتنا، وحتى ولو قَدَّمنا بعض الحلول فإنها تكون حلولا سطحية ومؤقتة لا تحمل رؤية مستقبلية ولا تُعَبِّرُ عن رغبتنا في بناء حضارة كما فعلت المجتمعات الأخرى خصوصا الغربية.

يكمن الإسهام الحقيقي لمالك بن نبي في الدراسات الاجتماعية والإنسانية وكذا الفلسفية، أنه قدم مفهوما جديدا للمجتمع لا يُعَرِّفُ المجتمع على أساس جانبه الكَمِّي

ص . ص 289 - 311
رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
moh.philo@yahoo.fr

وإنما الكيفي، ذلك أن المجتمع ليس مجموعة من الأفراد وإنما هو مجموعة الأشخاص الذين يعملون على تحقيق المصلحة العامة، وربط مالك بن نبي هذا المفهوم بكيفية إحداث التغيير في المجتمع الذي يكون هدفه بناء الحضارة، ولا ينكر مالك بن نبي أهمية المصلحة الفردية أو أَحَقِّيَةَ الفرد في التفكير في مصلحته، ولكنه رأى أن تَحَقُّقُ المصلحة العامة هو بالضرورة تحقق لمصلحة الفرد، لذلك فإنه من أهم مرتكزات فلسفة التغيير عند مالك بن نبي هو أن التغيير الحقيقي يربط بالمجتمع وليس بفرد بعينه سواء كان رجلا أو امرأة ومُبَرِّرُهُ في ذلك هو أن التغيير إذا مَسَّ الفرد قد لا يمس المجتمع ككل والعكس صحيح، فعندما يحدث التغيير في المجتمع فإن كل فرد فيه سينال نصيبه من التغيير، لأن الحضارة كما بَيَّنَ لنا مالك بن نبي تقوم على البناء لا على التكديس، تقوم على مدى قوة شبكة العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع.

تلعب شبكة العلاقات الاجتماعية دورا مهما في إحداث التغيير في المجتمع، وذلك لأنها تُعَزِّزُ علاقات التلاحم بين أفراد المجتمع وتُنَمِّي فيهم الشعور المشترك بضرورة التفكير في المصلحة العامة والعمل على تحقيقها، بحيث يجب أن يكون لدى كل فرد قناعة تامة بإعطاء الأولوية لمصلحة المجتمع على مصلحته الخاصة وهذا فقط ما يضمن تَطَوُّرَ المجتمع وتَقَدُّمَهُ، وهنا أعطى مالك بن نبي للفكرة الدينية أهمية كبيرة في إحداث التغيير الاجتماعي من ناحية أنها تعمل على توحيد شبكة العلاقات الاجتماعية بين كافة أفراد المجتمع وتُهَيِّؤُهُم بالتالي للمساهمة في بناء حضارة المجتمع.

تبين لنا فلسفة التغيير عند مالك بن نبي أن التغيير أصبح ضرورة وحتمية وأن الهدف من وراءه هو جعل المجتمع مجتمعا متحضرا، حيث حصر مالك بن نبي عناصر هذا التغيير في ثلاث هي الإنسان والتراب والوقت، وهي العناصر التي يجب على المجتمع أن يُولِيها أهمية كبيرة إذا أراد أن يكون مجتمعا متحضرا بأن يُوَجِّهَهَا تَوجِيهًا سَلِيمًا مع التأكيد على أن توجيه الإنسان أو توجيه علاقة الفرد بمجتمعه يكون بتوجيه مجالات ثلاث هي الثقافة والعمل ورأس المال، كما أن التغيير لا يمكن أن يحدث إلا بمراعاة عناصره

رت م د :2353- 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
moh.philo@yahoo.fr

الثلاث مجتمعة والنظر إليها في تكاملها مع بعضها البعض دون الاهتمام بعنصر على حساب غيره، وذلك حتى يتحقق هدف التغيير والذي هو بلوغ الحضارة.

الاحالات و الهوامش:

1 - هو مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن مصطفى بن نبي ولد في مدينة قسنطينة بالجزائر في 28 جانفي 1905.أنظر: عبد الله بن حمد العويسي، مالك بن نبي، حياته و فكره، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، ط1، بيروت، 2012، ص 51. أهله تفوقه الدراسي للحصول على البكالوريا بامتياز ثم انتقل إلى فرنسا وتابع دراسته بكلية الهندسة، عاد إلى الجزائر لكنه رجع مرة أخرى ومكث بالمهجر حتى عام 1956 ثم سافر إلى القاهرة واستقر بها، ثم عاد إلى الجزائر سنة 1963 وتم تعيينه مديرا للتعليم العالي ثم استقال قصد التفرغ لاستكمال مشروعه الفكري "مشكلات الحضارة". أنظر: مولاي الخليفة المشيشي، مالك بن نبي دراسة استقرائية مقارنة، دار النايا، ط1، سوريا، 2012، ص 19. أما بالنسبة إلى أهم مؤلفاته فيمكننا أن نذكر منها: "الظاهرة القرءانية" و"شروط النهضة" و"وجهة العالم الإسلامي" و"مشكلة الثقافة" و"فكرة كومنولث إسلامي"، وغيرها.

2 - جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم، تقديم مالك بن نبي، ط8، 1989، ص 33.

3 - سورة الرعد الآية 11.

4 - جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم، المرجع السابق، ص 54.

5 - مولاي الخليفة المشيشي، مالك بن نبي دراسة استقرائية مقارنة، دار النايا، ط1، سوريا، 2012، ص 119.

6 - مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، سوريا، ط2، 2002، ص 161.

7 - مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، المصدر السابق، ص 163.

8 - المصدر نفسه، ص 129.

9 - المصدر نفسه، ص 37.

10 - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، سوريا، ط2، 2000، ص 31.

11 - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر الجزائر، دار الفكر، دمشق، ط3، 1986، ص 94.

12 - المصدر نفسه، ص 28.

13 - مالك بن نبي، بين الرشاد و التيه، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، سوريا، 1989، ص 56.

14 - محمد بن سباع، الفكر العربي المعاصر من مضائق الاستحالة إلى أفق الإمكان، دار الأيام، ط1، الأردن، 2016، ص 62.

15 - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، المصدر السابق، ص 56.

16 - مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، سوريا، 1986، ص 67.

17 - المصدر نفسه، ص 138.

18 - عمار بن عيسى، مالك بن نبي في تاريخ الفكر الإسلامي وفي مستقبل المجتمع الإسلامي، دار الفكر، سوريا، 2007، ص 14.

19 - مالك بن نبي، شروط النهضة، المصدر السابق، ص 78.

20 - المصدر نفسه، ص 33.

21 - مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، المصدر السابق، ص 172.

22 - مالك بن نبي، شروط النهضة، المصدر السابق، ص 75.

23 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، سوريا، ط2، 2002، ص 173.

24 - عبد الله بن حمد العويسي، مالك بن نبي، حياته و فكره، المرجع السابق، ص 324.

25 - مالك بن ني، مشكلة الثقافة، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، سوريا، ط4، 2000، ص 37.

26 - مالك بن نبي، من أجل التغيير، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، سوريا، ط4، 2005، ص 55.

27 - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، المصدر السابق ص 50.

28 - مالك بن نبي، من أجل التغيير، المصدر السابق، ص 57.

29 - عبد الله بن حمد العويسي، مالك بن نبي، حياته و فكره، المرجع السابق، ص 343.

30 - محمد بن سباع، الفكر العربي المعاصر من مضائق الاستحالة إلى أفق الإمكان، المرجع السابق، ص 68.

31 - مالك بن نبي، شروط النهضة، ، المصدر السابق، ص 107.

32 - محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن، دار الفكر، سوريا، 2007، ص 48.

33 - مالك بن نبي، شروط النهضة، المصدر السابق، ص 107.

34 -المصدر نفسه، ص 131.

35 - مالك بن نبي، شروط النهضة، المصدر السابق، ص 139.

36 - المصدر نفسه، ص 140.

37 - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، المصدر السابق، ص 55.

38 - مالك بن نبي، من أجل التغيير، المصدر السابق، ص 58.

39 - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، المصدر السابق، ص 43.

40 - مالك بن نبي، شروط النهضة، المصدر السابق، ص 66.

41 - عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، المقدمة، ج1، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار النهضة، ط7، مصر، 2014، ص 817.

42 - محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن، المرجع السابق، ص ص 25،26.

43 - لخضر لحميدي، مشكلة التغيير عند مالك ين نبي، (رسالة ماجستير) جامعة الجزائر، 2005/2004، ص 29.